العربى قد استحال أعجمياً أو كاد ، فلا ترى المستقل به والمحافظ عليه إلا الآحاد ، هذا والعصر ذلك العصر القديم ، والعهد ذلك العهد الكريم[1].

وإذا تصورنا أن عهد التابعين قد امتد حتى منتصف القرن الثانى الهجرى ، فالذى يتوقع حينـذاك أن مرحلة جديدة من مراحل استخدام الفصحى واللهجات قد بدأت فى المجتمع العربى ، وتميزت هذه المرحلة بسمات جديدة يلخصها كلها عبارة واحدة هى « أن اللهجات العامية أصبحت فى الحضر عادة ، وأن الفصحى أصبحت صناعة » ويؤيد هذه العبارة الدلائل الآتيـة :

أولا : أن المطلع على كتب الجاحظ ، وما وصفـه فيها من مشاهداته وما حكاه من مسموعاته وما نص عليه من آراء استخلصها مما شاهد أو سمع يستخلص منها وجود نوعين من اللغة فى عصره الذى امتد به من منتصف القرن الثانى إلى منتصف القرن الثالث ، إحداهما لغة الخاصة ، والأخرى لغة عامة الناس ، ويطلق على الأولى أحيانا أنها « لغة الأعراب » وفى مجال السخرية يصفها بأنها « لغة أصحاب التقعير والتشديق والتعطيط » ويطلق على الثانية أنها « لغة المولدين والبلديين » فتكلمو الأولى فئة خاصة هم الأعراب والمثقفون فى مجالات العـلم والمواقف الجادة ، والمتكلمون للثانية هم عامة الناس ، ولا بد للأخيرين — وهم الأكثرية — من تعلم اللغة العامة لفهم القرآن ، وحاجتهم إليها فى مصالحهم وصلتهم بغيرهم من عامة العرب .

ولعل ذلك يقدم لنا أحد الأسباب التى كانت وراء الجهد العظيم الذى ازدهر فى النصف الثانى من القرن الثانى من النحاة والرواة ، وهو يفسر أيضا نشاط المعلمين للغة فى هذه الفترة فى كل من البدو والحضر ، وكذلك رغبة الناس فى رواية الغريب والتكسب به ، وهو أيضا السبب فى تأليف

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر ج ١ ص ٤ .